

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

رصل الفات

ذهب البكباشي ريد رئيس بثة الحمى الصفراء في جزيرة كوبا إلى الولايات المتحدة بدعوة من السلطات . وبق ماعداه كارول ولازار في كوبا . أما كارول فطلب إلى لازار أن يسلط عليه بعوضة سبقت أن شربت من دم مريض بالحمى ، ففعل ، ومرض كارول بالحمى ثم اشتفى . ثم وقت بعوضة ويثه انفاقاً على فروع لازار وهو يدور في عنابر المرضى ففرض بالحمى ومات

— ٤ —

وعاد ريد من الولايات إلى كوبا ، فرحب به كارول ترحيباً حاراً . وحزن ريد للازار وفرح للتجربتين اللتين نجحتا في إعطاء الحمى إلى كارول وإلى س . ص . وجفّف مدامه على لازار ورأى في القدر الذي وقع به يد الله التي لا غالب لها ، ولم يفته أن يرى فيه ظاهرة للعلم أيضاً . كتب ريد : « إن لازار قرصته بعوضة وهو في عنابر الحمى الصفراء بالمستشفى ، فلا أقل من الاقرار بجواز أن هذه البعوضة تلوث بالحمى الصفراء من مريض ، وإذن لحادث لازار وقع اعتباراً ولكنه لم يضع سدى ... »

قال ريد : « والآن جاء دوري أنا لأذوق البعوض دى » . ولكنه كان بلغ الخمسين من عمره فأرادوا تخزيله فقال لهم : « ولكن لا بد من البرهان » . وتخصّصت إلى صوته الموسيقى فتجده لطيفاً خافتاً . وتنظر إلى وجهه فلا يجد لذقته هذا البروز الذي يكون للفتوة والرجولة القوية . وتجمع هذا وهذا فتكاد تحسب أن ريد كان في الذي قال متردداً هيّاباً . والله لو حسب ذلك ما شأنه ، وكيف يشينه وهو واحد من ثلاثة مات أولهم من غير شك وورى التراب بيقناً

قال ذلك الصوت اللطيف الناعم : « ولكن لا بد من برهان » . وقام ريد صاحب هذا الصوت اللطيف الناعم إلى

الجنرال ليونارد وود Leonard wood ، وحمل إليه الأخبار كلها وما تضمنته من أحداث مؤثرة . وكان وود أقل الرجال تخشعاً . فاستمع ماسمع حتى أذن لريد أن يفعل ما يشاء وأن يذهب إلى أي حد شاء . وأعطاه مالا ليقم بمسكراً من سبع خيام وبيتين صغيرين ، حتى قناة السّلم أعطاه منها . وأحسن من هذا كله أنه أعطاه مالا يشتري به رجالا يقامرون في تلك التجارب بأرواحهم فيسلكون بها سبيلاً تهلك فيها على الأقل نفس من كل خمس فلا تعود إلى الوجود لتستمتع بالثمن الذي دفع فيها . فشكر ريد الجنرال ، وخرج عن كبادوس حتى إذا بمد عنها ميلاً نصب على الأرض سبع خيام ، وأشر العلم الأمريكي فوقها ، وأسمى المسكر بمسكر لازار — ولتحتفل ثلاثاً لذكري لازار . وستعرف بمد قليل أي أعمال مجيدة وقعت في هذا المكان

ليس آكد في الحقائق من الحقيقة الآتية : كل صائد من كبار صياد المكروب يختلف اختلافاً بيناً عن كل صائد آخر منهم ، ولكنهم جميعاً مجمعون صفة واحدة : أنهم جميعاً مبتكرون ، إلا ريد . ولكنه لا يستأهل الشفق لأنه لم ينتكر ، لأن عذره حاضر ، فأمر البعوض والقُرّاد وغيره من ناقلات المكروب كان حديثاً شائماً على ألسن الباحث في عشر السنوات الأخيرة من القرن الماضي ، فلم يكن لريد مندوحة عن مباحه واقتباسه . وإن فاته الابتكار في هذا ، فوالله ما فاته أن يسود البحاث جميعاً بقوة خُلِقته . وإلى جانب هذا كان مجرباً متقناً محسناً . ووسوس إليه خُلِقته الصلْب القويم : « لا بد من قتل الناس لخلاص الناس » ، فقام يرسم سلسلة من اختبارات مُحكّمة هي أسوأ ما ابتدعه رجلٌ خبيرٌ من الجرائم

وكان ريد رجلاً يحب الاتقان والاحسان في الأعمال ، فقفى بأن كل رجل يُراد قرصه ببعوضة يصير حبسه قبل قرصه أياماً وأسابيع في هذا المسكر تحت شمس المحرقة حتى يكون بمزلة عن أي عدوى بالحمى الصفراء تأتي من غير هذه البعوضة ، فلا بد أن تكون التجارب مسدودة الثقوب محكمة لا يخرّ الماء منها . وأعلن ريد في الجند الأمريكي أن الحرب لم تضع أوزارها بعد^(١) ، وأن حرباً جديدة أعلنت لخلاص الانسان . وسأل هل فيكم متطوعون ؟ ولم يكذب يحف مداد الاعلان حتى دخل

(١) يقصد الحرب بين الاسبانيين والولايات المتحدة التي قامت في كوبا كما قدمنا . وكانت انتهت عندئذ

بالأرقام ١٢٦٦٣٤٥ كما يسمى صيادو الكروب حيواناتهم التجريبية فيقولون الأرنب رقم ١ والأرنب رقم ٢ وهم جرا. وعلى كل حال تقدم هؤلاء الخمسة ، فلما نهياوا للقاء البعوض عضهم عضات هي أخطر في المتوسط من رصاص البنادق ، واستحقوا المال الذي أخذوه ، فان أربعة منهم جاءتهم الحى الصفراء على أعين ما تجيء وبأظهر ما تكون من الأعراض ، أو كما يقول بعض الأطباء إذا هم لبسوا جلد العلماء : « بأجل ما تكون الأعراض » وهذا نصر مبين ، نصر لا يأتيه الشك من أى جهاته ؛ فان أحداً من هؤلاء الرجال لم يقترب يوماً من حيث يكون الوياء ، وأخذوا فعملوا معاملة الخنازير الفينية والفتران والأرانب التجريبية فخبسوا طوبلاً في ركبادوس في خبات مستورة لا يصنمون شيئاً ولا يرون أحداً ، ولم يحدث لهم أحداث إلا شككات في أجسادهم شككتهم إياها إناث البعوض المقلمة ظهورها بالفضة . وكان الضجر لا شك قائلهم لولا أنهم كانوا جهالاً مُذرفين فلم يكن بينهم وبين الحيوان فارق مبين

كتب ريد إلى زوجته يقول : « افرحى منى يا حبيبتى ، فانك لو استئثنت لقاح الدفتريا وبشلة السل التي اكتشفها كوخ ، فهذا الكشف الملقى الذي وجدناه سيرةً للأحفاد بأنه أكبر كشف حدث في القرن التاسع عشر ... »

لم يكن ريد في السبيل التي اتخذها مبتكراً ، ولكن دقته هذه بلغت حداً نهض به إلى طبقة المبتكرين ، فهو لا شك مبتكر في دقته ، وقد كان في مقدوره أن يقف من بحته عند هذا الحد ، بل لملك مقسم أن قد سوت له نفسه الوقوف عند هذا الحد ، ولم لا وهؤلاء ثمانية جاءتهم الحى من قرصات البعوض ؟ ألا أى حظ هذا الذي سحب ريد فلم يمت من رجاله الثمانية غير واحد ؟

على أن ريد لم يقف عند هذا الحد ، وأخذ يتساءل : « ولكن أيجوز أن تنقل الحى عن طريق غير البعوض ؟ » واعتقد الناس أجمع أن ملابس الموتى من الحى وأفرشتهم وكل ما يمتلكون يحمل الموت في طياته ، فأحرقوا من أجل ذلك من الأفرشة والملابس ما بلغت قيمته ملايين الدولارات . وارتأى هذا الرأى رئيس الأطباء ، وارتأه كل طبيب له اسم في أمريكا شمالها وجنوبها وأوسطها إلا الشيخ المخبول فنلى . وتشكك فيه ريد . وبينما هو في سرور من مجاحه في عدوى

إليه في مكتبه جندي يدعى كينسجر Kessenger من أهيو Ohio^(١) ، ودخل معه رجل آخر يدعى جون موران John J. Moran ، وحتى هذا لم يكن جندياً بل كاتباً ملكياً يعمل في مكتب الجنرال فيتز هيو لي Fitzhugh Lee ، دخلا عليه مكتبه فقالا : « جئنا إليها السيد لتجرب فينا » . وكان ريد رجلاً ظاهر الذمة حتى الضمير ، فسألها هل أدركا كل الادراك ما أقدمنا عليه من المخاطر ، وأخبرها خبر الصداع الذي يجيئها ، والتهوع الذي يأتيها ، والقيء الأسود الذي يقينان . وذكر لها ما كان من وافدات جائحة لم يُبق من الرجال على رجل واحد ليعود فيحكى خبرها ويدل على فظائرها

فأجاب الرجلان : « نعلم ذلك ، وإنما جئنا تطوعاً واختياراً في سبيل العلم والانسانية وحدهما » . عندئذ أخبرها ريد بما كان من كرم الجنرال ود ، وذكر لها أن من تعضه البعوضة سيكون له مائتا ريال قد تزداد إلى ثلثمائة . فقال الرجلان : « نحن إنما تطوعنا على ألا نأخذ عن تطوعنا أجراً » ، فانتفض ريد على قدميه ورفع يده بالسلام إلى قبضته ، وهو البكبانى ، وقال لها : « أيها السيدان الكريمان ، لكما تحبتي »

وفي نفس هذا اليوم دخل الاثنان المحجر المسكرى ليتجهزا فيه ليصيرا بمثابة خنزيرين غنيين للتجريب على أحسن ما تكون الخنازير ، فلا تدخل إليهما لوثنة ولا تتطرق إليهما رية . وفي الخامس من ديسمبر استضاف كينسجر خمس بعوضات شربت من دمه حتى تروث ، وكانت اثنتان منها قد شربتا منذ خمسة عشر يوماً وتسعة عشر يوماً من دم مرضى هلكوا بالحى . ولم تمض عليه غير خمسة أيام حتى جاءه صداع يكاد يصدع رأسه ، ومضى يوماً آخران فأخذ يصفر لونه ، وتماقت عليه أعراض المرض كما يجب أن تكون . ثم تعاقب فحمد الله ريد على هذا الشفاء ثم جاء المجد يسمى إلى ريد وصاحبيه كارول وأجرمتى . وإن يكن الدهر لم يسمعه ، بمعنى أن الشبان الأمريكيين لم يزدحوا عليهم للتطوع ازدحاماً ويدوسوم في سبيله دوساً ويرموا بحياتهم رمية في سبيل العلم والانسانية ، فقد يمث الدهر إليهم رجالاً أسبانيين جاؤا كوباً حديثاً من أسبانيا ، وكانوا غاية في الجهالة ، وكان لهم مارب في المائتي ريال ؛ فتقدم خمسة من هؤلاء طمعاً في المال . ولنسبتهم المهاجرين الأسبان ، أولمل الأوفق أن أسميهم

(١) مدينة بالولايات المتحدة

فقد كان لا شك أطيب طعام
وتوالت الليالي وثلاثتهم في هذا البيت راقدون ، وللمهم
كانوا يفكرون فيما صنع الله بأرواح من سبقوهم إلى هذه الملاءات
وهذه الأحلقة ، أو لعلكم كانوا يفكرون هل من سبيل غير
البعوض تنتقل به الحمى . . . ثم جاء ريد ، وهو رجل يجمع إلى
طهارة ذمته شدة دقته ؛ وجاء كارول ، وهو رجل كالح عبوس ؛
جاء كلاهما يزيدان تجربتهما إحكاماً على إحكام . فخلما معهما
سناديق أخرى وردت من عنابر الحمى الصفراء ، فلما فضتها
فوك وكوك وچرنيجان فزعوا إلى خارج البيت عجزاً عن احتمالها
ولكنهم عادوا وراقدوا ، وناموا . . .

وقضوا على هذا عشرين ليلة ! فأين ذكراهم لا يُخلد ، ولم
صنيعهم لم يُجدد ! ثم نُقلوا وعُزِلوا وحدهم في خيمة طلبة
الهواء وانتظروا أن تأتيهم الحمى : ولكنهم لم تأتهم ، وزادوا وزناً
ومحووا أجساماً وقرقموا بالثُّسكات على البيت القذر الذي شرفوه ،
وعلى أحلقتهم وملاءاته التي تلفسوا بها فيه . ولما جاءتهم الأخبار
بأن كينسجر والاسبانيين أصابهم الحمى فتحكوا ملء أشداقهم
كتلاميذ المدارس أن تكون الحمى جاءت هذه الأجسام
الكبيرة من عضة بعوضة صغيرة

قد يمجيك هذا البرهان إعجاباً شديداً ، ولكن أي تجربة
فظيمة تلك التي ضاقت إليه ، على أنه لم يكف ريد فلم يرَّضه علمه
ولم تقتنع به كوثته

فأعاد الكرة ، فأدخل إلى تلك الحجرة ثلاثة آخرين من
شباب أمريكا ، وجاءهم بملاءات وأحلقة جديدة القذر جديدة
البسع وعلى هذه أنامهم عشرين ليلة ؛ وأراد أن يزيد في رفاهيتهم
فأنامهم في نفس الأقمصة التي مات فيها المصابون

ثم عاد بعد ذلك فأدخل ثلاثة شبان أمريكيين آخرين في
نفس هذا البيت ، وأرقدتم فيه عشرين ليلة على نفس الأسلوب
مع فرق بسيط زاد التجربة دقة : ذلك أن غطى وسائدهم بفضوط
أشربت قبل ذلك من دماء رجال ماتوا بالحمى

وبرغم كل هذا بقي كل هؤلاء الرجال التسعة أحياء فلم تنالهم
مسة ولو خفيفة من الحمى . قال ريد : « ما أعجب المسلم ؟ » .
وكتب : « إن الأسطورة الكاذبة التي تقول بأن الملابس تنقل
الحمى الصفراء قد انفتحت كما تنفتق ققاعة نيجزها بدبوس » .
ولقد صدق ريد ، فإعجب العلم حقاً ! ولكن كذلك

كينسجر والاسبانيين المهاجرين جاء النجارون فنصبوا بيتين
صغيرين دميمين في معسكر لازار . وكان البيت الأول أبيض
البيتين ، طوله أربع عشرة قدماً في عشرين عرضاً . وكان له بابان
في مدخله ، نصيب أحدهما في حذق خلف الآخر حتى لا يُفلس
منه البعوض . وكان له نافذتان تطلان على الجنوب فتحتا والباب
في حائط واحد حتى لا يجري في هواء البيت تيار . ووضع في
البيت موقد لطيف ليرفع حرارته بعيداً فوق الدرجة الثانية
والثلاثين المثوية ، ووضع فيه براميل مليئة بالماء ليتشبع منه
الهواء فيصبح بمره ومائه خافقاً كبطن سفينة ببعض مناطق
الاستواء . وكان في هذا كفاية لهذا البيت من كرب وضيق ،
ولكن جاء الثالث عشر من نوفمبر عام ١٩٠٠ فحمل جند إليه
وهم يتصيبون عرقاً عدداً من سناديق محكمة التسمير متممة
المنظر جاءت من عنابر الحمى الصفراء لتجعل من هذا البيت مثلاً
يُضرب في اللعنة والشؤم . . .

فلما أدير نهار هذا اليوم وخيم إليه شهد ريد وكارول مشهدا
من خير مشاهد الشجاعة والتضحية ، في هذا البيت اللعين الأول
دخل دكتور أمريكي شاب يدعى كوك ، ودخل معه جنسديان
أمريكيان (أيت شعري ماذا عوق الناس فلم تنصب لهؤلاء
الأبطال تمثيل الأبطال) يدعى أحدهم فوك Folk ويدعى الآخر
چرنيجان Jernegan

وفتح هؤلاء الرجال الثلاثة هذه السناديق المحكمة المريبة
داخل هذا البيت في جو رطب متلذج تضيق فيه الأنفاس
أن لها من رائحة كرميه ! ولعنوا وسبوا وسدوا أنوفهم
واستعمروا بفتحة السناديق . فأخرجوا منها وسائد عليها القىء
الأسود لقوم باتوا بالحمى . وأخرجوا منها ملاءات أسرة وأحلقة
تلوثت بما يخرج من المريض إذا غاب حسه وهدمت قوته وضاع
تحكمه في جسمه . وأخذوا يضربون الوسائد وينفضون
الملاءات والأحلقة ، فقد كان ريد قال لهم : « لا بد أن تُعفروا
جو هذه الحجرة بالوباء وتنشروه جيداً بين أرجائها » . وقاموا
يهيئون لأنفسهم من هذا المتاع فراشا على أسرة صغيرة من أسرة
الجيش . وخلعوا ملابسهم وراقدوا على هذه الفرش القذرة
وحولوا النوم في تلك الحجرة الملمونة . . . وأقام ريد وكارول
على هذه الحجرة بحوطانها بالرعاية ومحاذران خشية أن تدخلها
بعوضة تآهة . أما طعام فوك وكوك وچرنيجان فلا نسل عنه